الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص. ب ١٠٨٥ — تلفون ٢٤٥٠٢

AL-ADAB *REVUE MENSUELLE CULTURELLE*
BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085
Tél - 24502

أصحاب الامتياز
منير البعلبكي - سهيل ادريس - بهيج عثمان

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef : SOUHEIL IDRISS
Directeur : BAHIJ OSMAN

العدد الحادي عشر
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤
السنة الثانية

No. 11 - Novembre 1954
2ème Année

أيها الأديب، من أنت؟

بقلم رئيف خوري

اما انك ، يا صاحبي الاديب، محترف (واؤثر نعتك بصانع) لفن من الفنون الجميلة ، فتلك حقيقة من حقيقتك لا ريب فيها ، ولا يصح لك اغفالها لحظة . والتعبير الادبي الفني والروعة في الاسلوب والعرض وامتاع القارئين والسامعين ، تلك كلها في عملك أشبه باللون والعبير اللذين لا تكون الزهرة الا بهما . ومن ثم كنت مطالباً بان تجيد لغتك ما استطعت الى الاجادة سبيلاً، وان تشقق صيغ التعبير وتتلمس الصور المبتكرة ، وان لا تكتفي من ذلك بما تعينك عليه الكنوز القديمة من ادب لغتك وآداب اللغات ، بل ان تفيد من مولدات التعبير التي تنبثق بتفاعيل الحياة وحاجات الحياة من عبقرية الشعب .

ولكن كل هذا يا صاحبي يتصل من الادب بالجسم ، وهو وحده لا يغنيك على عظيم اهميته ، اذ لا بد للادب من هذا المحتوى العاطفي ، الفكري ، الذي يكون له بمثابة الروح للجسم، ولا ينفصل عنه الا بمقدار ما تنفصل الروح عن الجسم.

وهنا أيقنْ ان ليس يغنيك من المحتوى العاطفي الفكري ما يقف عند هذا الحد المبهم أنه يعجب الناس ويرفه عنهم وينفعهم . بل حتم عليك في هذا المحتوى العاطفي الفكري الذي لا بد عنه لادبك ان تصدر - بالنتيجة - عن موقف معين من قضايا مجتمعك ووطنك وقومك وشعبك والانسانية وسواء أقصدت ام لم تقصد الى ذلك قصداً. حتم عليك في هذا المحتوى العاطفي الفكري الذي يشتمل عليه ادبك ان يكون لك موقف من دولتك وحكامها واحزابها، ومن الدول والحكام والاحزاب والطبقات الاجتماعية في عصرك الذي تعيش فيه ، لا فرق بين ان تريد الى ذلك او لا تريد . حتم عليك ان ينشأ لك من هذا المحتوى العاطفي ، الفكري الذي تتخذه لادبك موقف سياسي موالٍ او معارض او محايد . ولا تنس ان الحياد هو ايضاً لون من السياسة .

ومعنى هذا ان الادب ليس شيئاً للترفيه فقط . معناه ان الاديب يستحيل عليه ان يتنصّل من توجيه اجتماعي سياسي يحصل في ادبه مباشرة او غير مباشرة بوعي او بغير وعي ، توجيه سياسي اجتماعي يستهدف الحرية ، وبالتالي يشجب كل ما يناقض الحرية من الاستعمار بجميع صوره .

ومعناه ايضاً ان الاجتماعيين والسياسيين الذين يرون لك ايها الاديب صفة اجتماعية وسياسية تلزمك لزوماً - وسواء أشئت ام ابيت - انما هم على حق من جهة المبدأ والاساس . اما ماذا يستنتج من هذا المبدأ والاساس من احكام يطبقونها عليك فهنا موضع الاهمية !

كثير من هؤلاء الاجتماعيين والسياسيين يتصورون ان الاديب ، اذا كان لا بد له من مذهب اجتماعي ، فينبغي لذلك المذهب بالضرورة ان يكون مذهبهم يملونه عليهم املاءً . ويتصورون انه، اذا كان لا بد له من سياسة فينبغي لتلك

يعالج الكاتب في هذا المقال موضوعات مختلفة تتناول قضايا الاديب وموقفه من انتاجه ومن قرائه، ونحن نعتقد ان هذه القضايا على جانب كبير من الاهمية، ولذلك نفتح صفحات المجلة لمناقشة هذه الموضوعات على اختلافها .

« الآداب »

السياسة ان تكون سياستهم يفرضونها عليه فرضاً . وهكذا يتحول التوجيه الذي لا بد منه في كل ادب الى تلقين، ويتحول الاديب الى شبه « ببغـــاء عقله في اذنيه » كما يقول شوقي . والواقع ان طبيعة الادب تقتضي التوجيه ولكنهـا لا تحتمل التلقين لا مادة ولا معنى . وقد وقـــع في تجارب الادب الحديث ان خلط الخالطون من اجتماعيين وسياسيين وحتى ادباء ايضاً بين التوجيه والتلقين فشهـدنا على الادب وبالاً عظيماً . ولنعتبر ذلك في الادب الالماني الذي لبث حقبة مسخراً لما تلقنه اياه النازية فجاء تافهاً عقيماً لسببين : لتفاهة النازية وعقمها اولاً ، ثم لان التلقين في الادب يبتليه بالتفه والعقم أياً كانت المادة الملقنة . ثم لنعتـبر ذلك ايضاً في الادب الروسي الذي لا يزال خاضعاً لما يلقنه اياه الحزب الحاكم والدولة . فان هذا الادب على ما يبدو فيه لاول وهلة من محتوى جديد، يستدعي الاعجاب وقتاً ، لا يلبث ان يضجر قراءه ومستمعيه (ونظن كتابه ايضاً) وذلك لما يطغى عليه من تلقين يفقـــده التنوع والانطلاق اللذين يعطيـــان الادب لونه ونكهته ، ويكظه بشعارات متشابهة مكررة حتى في العبارات ، ويطبعه باسلوب رتيب واحياناً مبتذل بحجة التقرب الى فهم الشعب ، ويعدمه كل نقد للدولة التي تسيطر عليه وكل مـــا يشتم منه رائحة المحاسبة للحكام والتعريض بالقادة المرضيّ عنهم ، ويحظر عليه التعبير عن كثير من العواطف الانسانية ، يقنن له المواضيع ، بحجة ان هذه رجعية وتلك بورجوازية ، وتلك وطنية ، وتلك من سخافات المثقفين الخ ...

وهكذا احترس يا صاحبي من ان يُخلط عليك بين التوجيه والتلقين والتقنين، فان طبيعة الأدب – وبالتالي الأديب – ليس أفسد لها من التلقين والتقنين اللذين لا تبقى معهما للادب نكهة ولا لون ، ولا تبقى معهما للأديب شخصيته .

وينمحق الأديب انمحاقاً ما لم تبق له هذه الشخصية الخاصة المستقلة . فـاذا كان الاجتماعيون والسياسيون على حق في ان لك صفة اجتماعية وسياسية تلزمك لزوماً لا انفكاك لك منه ، فالفرديون على حق ايضاً في ان لك صفة فردية لا تنـازل لك عنها والا ضعت بتضييعها ، وفي ان فعل الانتاج الأدبي عمل فردي ولا يمكن ان يصبح عملاً جماعياً ، عملاً مشتركاً بينك وبين طائفة من الناس ، كأن تضع أنت العنوان مثـلاً وثانٍ ينشيء المقدمة وثالث يبني جسم الموضوع وآخر يرتب الخاتمة ، ثم يُضم ذلك كلـه بعضه الى بعض في مركـّب واحد ، كما هي الحـــال في مصنع للأحذية ، أو منسجٍ للألبسة ، أو معمل تعليب للمقدّات .

وهنا السؤال يا صاحبي ، كيف توفق بين الصفة الاجتماعية والصفة الفردية في آن ؟

انك لن تبلغ ذلك ما لم تعش حياة منفتحة على مجتمعـك ووطنك وقومك وشعبك وعصرك ، حياة تطلق فيها نوافـذ نفسك للمؤثرات مما يحيط بك ويحدث حولك ، ثم تشفع ذلك بحياة فيما بينك وبين نفسك ، فتكون لك حياتان بينهما اخذ وعطاء على استمرار ، حياتان مدمجتان في حياة واحدة هي حياتك الاجتماعية الفردية . بذلـك تتوقى شرّ التلقين والتقنين وشر الترديد الببغاوي الذي تقع فيه اذا اكتفيت بحياة خارجية وتتوقى شرّ الانعزال وضيق الافق واجـــترار الذات اذا اكتفيت بحياة داخلية . ويصبح ادبك الذي تنتجه فعلاً ارادياً اختيارياً ، ويصبح تقيّـدك والتزامك فعلاً حراً ، ويصبح حتى تنازلك عن حريتك حين تتنازل عنها في وقتٍ ما ، فعلاً حراً لانه بمشيئتك كان وباختيارك كان .

ولا يروعنك ما يهوّل عليك به من انك سجين الـــبرج العاجي ، فما من اديب يستغني عن ان يخلو الى ذاته ، وما من أديب ينتج ادباً إلا اذا خلا بالنتيجة الى ذاته ، والا اذا وجد من ذاته نداءً قاهراً يأبى عليه إلا ان يكتب وينظـم بحيث حمل ذلك تولوستوي عـلى القـول : لا تكتب ولا تنظم اذا استطعت ان لا تفعل .

ولا يروعنك ما يهوّل عليك به من انك قاطع مـــا بينك وبين الشعب ، فالصلة بينك وبين الشعب لا تصح إلا اذا كانت عبر نفسك ، وللأدب والابداع الأدبي مقاييس لا تتفق دائماً والتطبيل والتزمير الشعبيين الملقنين ، والشعب – حتى ولو كان المقصود كله لا طبقة منه – ليس دائماً حكماً في هذه المقاييس . وقد افتضح من يرفعون الشعب الى صنم معبود ليكونوا هم كهنته وليخصوا انفسهم بالامتيازات التي يخص بها كهنـــة الاصنام انفسهم بينما لا تفيد الاصنام شيئاً من هـــذه العبادة الشفويّة لها .

قلت ، الشعب ، حتى ولو كان المقصود جميـع الشعب لا طبقة او زمرة منه . ذلك ان من الاجتماعيين والسياسيين من يخشون الأسمـــاع بذكر الشعب وهم في الواقع يعنون طبقة منه كالبرجوازية والبروليتاريا مثلاً ، أو يعنون زمرة حزبية ، بحجة أنها (أي : الطبقة أوالزمرة الحزبية) تحمل رسالة التقدم

وتشكل جند الطليعة المناضلة في سبيل هـذا التقدم . على أن الواقع ان الطبقة وحدها حتى البروليتاريا ، حتى في الحالات التي لا يكون فيهـا اسم الطبقة ستاراً لزمرة حزبية ، ليست ممثلة التقدم بمفردها او لا سيما في مجتمعات كالمجتمع العربي حيث لا يمكن حذف الأمة والاكتفاء بالبروليتاريا وغيرها . ولكن حتى لو سلمنا ان المجتمع قد بلغ من التطور مبلغاً اصبحت معه البروليتاريا مثلاً هي ممثلة اعظم قوى التقـدم ، فالادب ليس له ان يتنصل من طابعه الانساني ومن المواضيع الانسانية العامّة ليقتصر على ما تقننه له طبقة معيّنة وان تكن هي رافعة لواء التقدم . ذلك ان التقدم بطبيعته تراث انساني نامٍ على استمرار ، وليس هو من عمل طبقة اذا صحت تقدميتها فانها لا تلبث ان تواجه احد امرين لا ثالث لهما : اما ان تنقلب رجعية واما ان تلغي ذاتها لتحلّ محلها طبقة اخرى تقدمية ، او لتزول الطبقات اطلاقاً وتبقى الانسانية ويبقى التقدم ويبقى الأدب .

وبعبارة اخرى ان للادب عمراً أطول من عمر البروليتاريا وغير البروليتاريا ، من الطبقات الاجتماعية . ومحتوى الأدب انساني ، ينطبع في المجتمع الطبيعي بالسمات الطبقية ولكن هذه السمات الطبقية ما ينبغي لها ان تعمينا عن حقيقة محتواه الانساني — هذه الحقيقة الظاهرة احياناً مع السمات الطبقية واحياناً برغمها .

وهذه التقدمية يا صاحبي الأديب ، إنهم كذلك يهولون بها عليك فلا يروعنك الامر . التقدمية في السياسة والاجتماع — وهي المقصودة عنـدهم تتخـذ في التاريـــخ صوراً مرحلية ، نسبية ، ولا انكار ان التقدمية الادبية تتخذ في التاريخ مثل هذه الصور المرحلية النسبية . صور التقدمية السياسية الاجتماعية اقصر عمراً واسرع انفاقاً لنفسها . ولك في ذلك مثـــلاً عبرة بتقدمية الخليفة العباسيّ الثـاني ابي جعفر المنصور . فانـــه لا شك كان تقدمياً اذا صحت المقاييس التي تجعل مـــن ايفان الرهيب في تاريخ روسيا تقدمياً . على ان ابن المقفع كان ايضاً تقدمياً ، والمحتوى التقدمي في ادبه مازال صامداً الى عصرنا اليوم .

فهل كان للمنصور اذاً بحجة تقدميته ان يتواطأ على قتل ابن المقفع وخنق افكاره ؟ ثم أتستغني التقدمية في السياسة والاجتماع عن ان يرافقها مفهوم لها (مفهوم يتحرر ، ويتطور ويتبدل) ؟ وأية قوة اذاً ، هي التي اعطي ، لهـــا ان تدرك هذا المفهوم وتحسه ان لم تكن هي العقل والشعور ؟ وكيف يتسنى للعقل والشعور ان يبقيا على اهبة وتحفز لادراك هذا المفهوم المتحرك ، المتبدل للتقدمية ، ان لم يحتفظا بحريتهما ، هذه الحرية التي هي من المعطيات الاساسية الدائمة للتقدمية التي تتشكل صوراً مختلفة ؟

وهكذا اذا سئلت عن نفسك يا صاحبي الاديب ، او اذا سألت نفسك عن نفسك وما أجدرك ان تفعل ، فلا ارى لك خيراً من ان تعلم انك سادن للحرية في حرم العقل وهيكل الشعور .

وليس عملك بالهين . انه حرب على جبهتين في الاقل وقد تكون على جبهات ، وقد تضطر الى القيام بها وحدك . والعدة التي تحتاجهـــا في هذه الحرب ليست بالسهلة الميسورة ، انها عزيزة ، وادناها هـذه المادة التي تقيم بها أودك . أجل ، لا مندوحة لك من ان تجابه السؤال : من أين اعيش ؟ فأياك قبـــل كل شيء أن تسلم للدولة بـأن تكون هي لك مصدر الرزق ، فتكون قد سلمت حريتك الى الذباح . ولا عبرة في هذا الامر بما يقال لك : تختلف دولة عن دولة فكل الدول تشترك في خاصية واحدة : أنها تسعى ، اذا قدرت ، لتقليص مجال الحرية ، فيما يمس مصالحها ، الى أضيق الحدود . وجميع ولاة الدول يشتركون في خاصية ، واحدة انهم لا يحتملون من الحرية ، اذا قدروا ، الا مايوافقهم ، هم يريدون لو قدروا ، ان تكون الحرية كلها لهم ، وهذا هو الاستبداد بعينه كما يقول عمر فاخوري . اذا ، فلتطلب لك مصدر رزق لا يقطع عنك ولا يسد عليك بحسب هوى الدولة واهواء ولاتها ، كأن تتعاطى مهنة حرة ، او أن تتخذ لك ملكاً حلالاً تنتفع به ، وهذا يوجب في المجتمع الامثل الذي تطمح اليه أن تكون الملكية الخاصة الصغيرة ، التي هي ثمرة الجهاد والمسعى الحلال ، مصونة مقدسة فوق ان تمتد اليها ايدي الحاكمين بالمصادرة كلما شاؤوا .

اي صاحبي الاديب ، مرة أخرى لاتنس انك سادن للحرية في حرم العقل وهيكل الشعوب !

رئيف خوري

صدر كتاب

تنظيم النسل

اول دراسة في اللغة العربية لهذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة

للدكتور وليد قمحاوي

دار العلم للملايين